نشأة الشعر الجاهلي وأوليته

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة؛ فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى؛ إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارًا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى . وتحدث ابن سلام عن أوائل الشعراء الجاهليين الذين اكتملت عندهم صياغة القصيدة الجاهلية في الخلق والبناء ، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سننها طواهم الزمان. وفي ديوان امرئ القيس اشارة الى ذلك .

عُوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئًا سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال.

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات؛ إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالبًا بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل، وكثيرًا ما يشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون في تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحًا أو هجاء وفخرًا أو عتابًا واعتذارًا أو رثاء. وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها؛ فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي به من رَوِيّ.

نظريات نشأة الشعر

١-- اقترنت نشأة الشعر منذ أقدم العصور برحلة العمل الجماعي، سواء أكان في رحلة للصيد، أم لجني الثمار، أو بتأدية عمل لا يمكن أن يؤديه فرد واحد . ان العمل الجماعي يوحد الأفراد ويقلل من تعبها ويقرب من تحقيق هدفها .و تولد من العمل الجماعي محاولات إيقاعية تنتظم بها الكلمات بطريقة معينة لأنَّ هذه الحركات الإيقاعية تساعد العمل، وتنسق الجهد، وتربط الفرد بفئة اجتماعية .

٢-- بقيت آثار الوظيفة السحرية مرافقة للشعر في مراحل لاحقة، حيث كان الشعر محض ترديدات وترانيم بدائية يقد بها السحر وتخاطب المجهول الذي شغل الانسانية ، فتحول الشعر الى اناشيد دينية في المعابد والهياكل الدينية وبيوت الالهة ثم الى ملاحم وتمثيليات تنشد في مناسبات الاحتفال والمواسم التي تتصل بعبادتهم واعمالهم واسواقهم .

٣-- إنَّ السجع هو الشكل التعبيري الذي تطور عنه الشعر، فالسجع فيما يرى ـ بروكلمان ـ قد ترقى إلى بحر الرجز الذي يسهل على السمع ويبلغ أثره في النفس، وبعض علماء العروض ينكرون عد الرجز من الشعر، وفي الواقع يبدو أنَّ الرجز في الجاهلية كان يلبي حاجة الارتجال فحسب، ولم يستخدمه بعض الشعراء في منافسة الأوزان العروضية الكاملة الا في زمن الأمويين، ومن الرجز نشأ بناء أبحر العروض على مصراعين وقافية في الثاني، أما الأوزان العروضية فلا ريب أنَّ بناءها تم بتأثير فن غنائي وإنْ كان بدائيا .

والحق انَّ هذه التصورات للمستشرقين والعرب إنما هي فروض ظنية، لأننا لا نملك دليلا يؤكد أنَّ العربي قد بدأ بالسجع أولاً، ثم بالسجع الموزون ثانياً، أو أنَّ الرجز قد تطور عن السجع الموزون، ومن ثم تفرعت عنه البحور الشعرية، فقد يكون ما حصل خلاف ذلك، اذ يذهب أحد الباحثين إلى القول بأن بعض القدماء والمحدثين قد زعموا أنَّ الرجز أقدم أوزان الشعر العربي، وأنه تولد من السجع، مرتبطا بالحداء ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها وسراها في الصحراء، وقد تولدت منه الأوزان الأخرى غير أنَّ هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أنْ يقال هو أنَّ الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية، إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب، ولكن شيوعه لا يعني قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى .

نشأة الاغراض الشعرية

١ - إنَّ الهجاء يتجلى فيه الخوف الغامض لانه في معتقد القدماء وسيلة سحرية تستخدم لتعطيل قوى الخصم ، ولإطلاق مثل ذلك اللعن، يلبس زياً خاصاً شبيهاً بزي الكاهن ثم تحول إلى وسيلة من وسائل السخرية والاستهزاء والتحقير .

ويؤكد هذا ما يذكره الشريف المرتضى في أنَّ الشاعر إذا أراد الهجاء دهن أحد شقي رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلاً واحدة ، ويعلق أحد الباحثين بأن حلق الرأس كان من سننهم في الحج، وكأن شاعر الهجاء يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه، وأثناء دعائه لربه أو لأربابه، حتى تصيب لعنات هجائـه بكل ما يمكن من ألوان الأذى ، وهذه الطقوس تدل على أنَّ فعل الهجاء لا بد أن ترافقه حركات وأفعال تؤدي إلى تأثير الفعل .

٢ -- الرثاء : محض اشعار تؤدي في صورة ترانيم وتعويذات تلقى على مسامع القتلى حتى يطمئنوا وهم في طيات لحدهم ، فلا يعد الرثاء بعيداً عن أجواء السحر، فالغاية من المرثية انْ تطفئ غضب المقتول، وتنهاه أن يرجع إلى الحياة فيلحق الأضرار بالأحياء الباقين ، وقد أسهمت المرأة في النواح والبكاء مع طقوس ترافق ذلك، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن والنعال والجلود وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام، ولعل في حلق رؤوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين .

٣- المديح : ان الصورة التي تضفى على الممدوح تبين أن يكون منبسطا راضيا وثائرا ساخطا في آن واحد ، تذكرنا بصورة الاله الغاضب والغافر كالذي تعكسه الاخبار عن الملك النعمان في يومي بؤسه ونعيمه وهما يومان يمثلان مناسبتين دينيتين وثنيتين.

اسبقية الشعر على النثر

اختلفت الآراء في أيهما اسبق الشعر أم النثر ، ويكاد الجميع يتفق على أن الشعر اسبق من النثر لأن النثر نوع من الأدب يحتاج الى روية وتفكر ونظر لا تتوافر في أمة الا بعد اجتياز مرحلة معينة من مراحل تطورها . أما الشعر فيرتبط مع الغناء برباط القربى ، لأن الانسان اول ما غنى كان غناؤه صوتيا ثم بدأ يضع الكلمات على شفتيه لتتناغم مع اللحن ، وكانت الفاظه غير منتظمة ، ثم بدا يضع جملا وتراكيب ذات معنى ويلحنها وبدأت اولى اوزان الشعر تظهر ، لذلك كان الشعر اقرب الى الشعور الفطري منه الى الشعور العقلي على عكس النثر .

أنواع الشعر العربي

١- **الشعر الغنائيّ** سُمي بالغنائي لأنَّه أكثر ما يكون في العاطفة والشُّعور ونحوهما مما يعتري نفس الشَّاعر. لقد نشأ الشِّعر نشأةً غنائيَّةً، فقد ارتبطت الموسيقى به منذ بداياته، فنجد من شعراء اليونان من كان يعزف وهو يغنِّي أشعاره كالشَّاعر هوميروس، وإنَّ تاريخ الشِّعر العربيّ شبيهٌ جدًّا بتاريخ الشِّعر اليوناني من حيث الغناء والطُّقوس المرافقة له، فقد كان الشُّعراء يعزفون على الآلات الموسيقية البسيطة أو يغنُّون الأشعار بمرافقة عازف موسيقى، ثمَّ تطوَّر ذلك فيما بعد إلى ما يعرف بالشِّعر الغنائيّ حيث أصبحت ترافق الشَّاعر جوقة كاملة مع رقص وموسيقى أكثر تطورًّا قد تغنَّى الكثير من شعراء العرب في الجاهليَّة بأشعارهم من أمثال المهلهل عدي بن ربيعة والأعشى الذي عرف عنه كثرة التَّغني بشعره، بالإضافة إلى الكثير من الأشعار والنُّصوص التي حملت في مضامينها دلالات واضحة على اقتران الشِّعر بالغناء، كما كان الأساس في قول الشِّعر هو تعلُّم الغناء وألحانه، حيث أكثروا في أشعارهم من ذكر الغناء والقيان والأدوات الموسيقية .

٢- **الشعر الملحمي** عُرِّف بأنَّه شعر قصصيّ بطوليّ متشعِّب يطول فيه السَّرد، وفيه من المعاني العظيمة الكثير، بالإضافة إلى الحديث عن الخوارق والمطامح البعيدة والآمال الكبيرة، بالإضافة إلى النَّزعة الإنسانيَّة والاتجاه القومي، وكثيرًا ما يكون في الشِّعر الملحمي بطلٌ ويكون هذا البطل قدوةً ومثالاً يحتذى به يقود الجماعة إلى النَّصر ويعقدون عليه آمالهم.

٣- **الشِّعر المسرحيّ** فنٌّ مأخوذٌ من المسارح الأجنبيَّة القديمة حيث كان المسرح اليوناني والرُّوماني يعتمدان الشِّعر لغةً للحوار، وبه كتبت كلُّ الأساطير والملاحم الكبرى الَّتي مثِّلت على خشبة المسرح، ولو عدنا إلى تاريخ المسرح وبداياته لوجدناه مختلفًا عن المسرح الذي نعرفه اليوم، فلم يكن الحوار المسرحي بصيغته الحاليَّة ولغته المتداولة، فإنَّ اللُّغة الَّتي كانت تكتب بها المسرحيَّات -وتحديدًا التراجيديَّة منها- هي اللُّغة الشِّعريَّة، حيث كان يعبّر عن الحوار والأحداث وكلِّ شيءٍ بالشِّعر وحده،

٤- **الشعر القصصي** وهو ما يروى من الأحداث والوقائع بالشِّعر وأوزانه وموسيقاه، بالإضافة إلى الغلوّ والإطراء الّذين يبعدانه عن التَّأريخ البحت، وهو قديمٌ عند الحضارات الأخرى كالهند واليونان وروما، يتداخل الشِّعر القصصيّ مع الشِّعر الملحميّ في نقطة الحكاية، والشِّعر القصصيّ ينقسم إلى نوعين، وهذان النَّوعان هما الملحمة والقصيدة القصصيَّة، ففي النَّوع الأوَّل يروي الشَّاعر الصِّراع بين الإنسان وبين قوى الطَّبيعة وبطولات الإنسان، بينما يروي في النَّوع الثَّاني قصصًا قصيرة تركِّز غالبًا على بطلٍ واحدٍ في كلِّ واحدةٍ منها.